حول الكيان الاجتماعي للقرائين في البلاد العربية

بقلم شمعون شيلمان

كانت هذه المجموعة الضخمة للامم ذات الثقافة العربية ، التي تمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج الفارسي ، مسرحاً لنشاط دائب ، قام به دعاة القرائين لا سيما في الفترة بين القرنين الثامن والثاني عشر للميلاد ، وترتب عليه دخول أفواج كثيرة في مذهبهم . ولكن ما يكاد القرن الثالث عشر يستهل حتى نشهد هبوطاً في الحياة الروحية لدى هؤلاء القرائين هنا وهناك ، وتضاؤلاً سريعاً في عدد أبنائه هذه الطائفة ، حتى وصل الامر في ايامنا الحاضرة الى انه لم يبق في البلاد العربية من هذه الطائفة الا مجموعتان احداهما في القاهرة والاخرى في « هيت » بالعراق .

ومما هو جدير بالذكر هنا ان تعاليم المذهب القرائي وتطوره وانتشاره لم تحظ الى الآن الا بدراسات ضيقة غير كافية ، لا سيما ما يتعلق بالحالة الاجتماعية ، اذا استثنينا بعض ملاحظات عابرة ساقتها المصادفات البحتة . وهكذا نتبين لاول وهلة ان دراسة الكيان الاجتماعي للقرائين في البلاد العربية ما زال ميداناً لم يطرقه احد من الباحثين ، وغم ما يمكن أن يتم فيه من دراسات مقارنة على اكبر جانب من الاهمية ، لدينا من وسائلها وموادها الاولية قدر غزير جداً . وهنا يبغي بدون أي شك ان نذكر في الطليعة الكشف الذي تم في عام ١٨٩٦ وعثر فيه على وثائق قديمة ترجع الى القرن الثامن الميلادي ، خلفتها لنا طائفة القرائين في « الفسطاط » من ضواحي القاهرة . وتتضمن هذه الوثائق التي تعرف عادة باسم « مستودع القاهرة » Geniza du Caire نحو مائتي الف قطعة ما زال بعد غير مدروسة ، فيما عدا قدراً ضئيلاً جداً تناولته ابحاث جزئية متفرقة . ومع ذلك فان هذا القدر الضئيل الذي نشر كاف لاعطائنا فكرة عن غزارة المادة

التي تحويها هذه المخطوطات[1] .

وقد اتيح لنا اننا، ابحاثنا ودراساتنا ان نجمع من المعلومات ما يكفي لتصور ما كانت عليه الحياة الاجتماعية للقرّائيين في الاقطار العربية ، في تلك الازمان السحيقة . اما فيما يتعلق بوقتنا الحاضر ، فقد قمنا بزيارة لطائفة القرّائين بالقاهرة ، وسندلي ههنا ببعض ملاحظاتنا في هذا الصدد .

ولما كانت طوائف القرّائين التي بقيت الى وقتنا هذا حضرية قحة ، اي تسكن المدن فحسب ، فان دراسة اجتماعية مقارنة تقضي بمراعاة ذلك منذ البداية. اي ان بحثنا سيقتصر على المدن ولن يمتد ابدًا الى الأرياف . ونحن نعرف مبلغ الفرق في مجتمعات الشرق الأدنى بين حياة القرى وحياة تلك الحواضر الكبرى المتأثرة بالتيار الاوربي .

هذا ، وطائفة القرّائين بالقاهرة كثيرة العدد نسبيًا اذ يبلغ اعضاؤها نحو ثلاثة آلاف وان كان هذا الرقم تقريبيًا نظرًا لان الاحصاء الدقيق ما يزال يعوزنا الى الآن .

وتتكون هذه الطائفة على وجه العموم من صغار ارباب الحرف على اختلافها. ففيهم النجّارون والنسّاجون والخيّاطون ، كما ان بينهم عددًا لا بأس به يشتغل بالصياغة او الحفر او الترصيع. وهناك طبقة وسطى قليلة العدد تتألف من الصنّاع ميسوري الحال — (اكثرهم جوهريون) — ومن التجّار. يلي هؤلاء عدد اقل من التجار الاغنياء. ومن ملّاكي العقارات او الاراضي ، ثم بعض موظفي المكاتب . ويأتي في النهاية عدد يقارب العشرة من ارباب المهن الحرّة : من اطباء ، واطباء اسنان ، وصيادلة ، ومحامين ، ومهندسين. وهكذا نجد في داخل هذه الاقلية من القرّائين كل الفئات الاجتماعية المعروفة في المدن الكبرى . وكما هو الحال في جميع انحاء الشرق ، نلاحظ لدى القرّائين فرقًا شاسعًا بين طبقة الملّاكين وبين غير

---

١) الوثائق التي تتكون منها هذه المجموعة موزعة في مكتبات العالم اجمع ، واهمها موجود في مكتبة جامعة كامبردج وفي المكتبة العامة لمدينة لينجراد . راجع في هذا الصدد :
P. Kahle : *The Cairo Geniza* ; Londres, 1947.

وارجع ايضًا الى مقال :
Sur la Geniza du Caire : *Vetus Testamentum* — Vol. III, 1953, p. 411-413.

الملّاكين. وهذا الفرق يتضح لاول وهلة في نوع الاحياء التي يسكنها كل منهم في المدينة. فالطبقات الدنيا والوسطى تسكن في وسط المدينة، في حي « الحرنفش » العتيق، حول « الكنيس » القديم المهجور الى حد كبير، وحول المراكز الادارية للطائفة. اما الطبقات الميسورة فانها تعيش في حي « العبّاسية » الحديث، حيث يجري الآن بناء « كنيس » جديد، او في مصر الجديدة « هليوبوليس »، من ضواحي القاهرة. كما نجد في النباية بضع عائلات تسكن احياء اخرى.

وتحافظ الطبقة الدنيا والوسطى على تقاليدها الشرقية القديمة وان كان ينبغي ان نذكر ان المظهر الخارجي لحياتها قد تأثر بتيار الحضارة الغربية. اما الطبقات العليا، التي درس كثير من ابنائها في اوربا، فانها تحيا حياة اوربية بشكل ملحوظ. فمثلاً بينما يحافظ ابناء الطبقات الدنيا على الزيّ المحلي الوطني، يلبس الآخرون الملابس الاوربية. اما الطربوش الذي كان الى عهد قريب غطاء الرأس الاجباري للجميع، فانه آخذ الآن في الاختفاء شيئاً فشيئاً.

ويستعمل القرّاءون اللغة العربية، وكلهم تقريباً يعرفون القراءة والكتابة. وتوجد بحي « الحرنفش » مدرسة للطائفة، تشرف هي على ادارتها، وتتلقى اعانة من الحكومة المصرية. وابناء القرائين في هذه المدرسة اقلية ضئيلة بالنسبة للعدد العام من التلاميذ، اما البقية منهم فمعظمهم من المسلمين، وان كانت توجد كذلك نسبة كبيرة من القبط. اما في حي « العباسية » فتوجد دراسة ليلية تعنى بتلقين تعاليم الدين لابناء الطائفة الذين يتعلمون اثناء النهار في المدارس الاخرى. وللطائفة مجلة نصف شهرية تصدر باللغة العربية اسمها « الكليم »، وهي في منتهى البساطة في مظهرها ومحتوياتها، لا تكاد تهتم الا بالشؤون المحلية.

واذا ما حاولنا ان نتبيّن الوضع الاجتماعي للمرأة في طائفة القرائين، لاحظنا اولاً انها اكثر تحرراً من نساء بقية الشعب، غير محجبة على الاطلاق، وان كان رب البيت، حتى في الاسر التي تعيش على النمط الاوربي تماماً، لا يشرك معه زوجته في استقبال قادم الى الزيارة.

ولنترك الآن مدينة القاهرة، هذه العاصمة الكبيرة الشديدة التأثر بالحضارة الاوربية، وننتقل الى داخل العراق، على ضفاف الفرات، الى ذلك البلد الصغير

المسمى « هيت » ، على بعد مائة وسبعين كيلومتراً من بغداد ، حيث لا يزيد عدد السكان على ثلاثة او اربعة آلاف . هنا نلاحظ ان الطائفة القرائية قليلة العدد لا تتجاوز المائتين ، كلهم من ارباب الحرف : حدادون او نحاسون أو مقصدرون او صاغة . ومستوى الثروة بينهم منحط جداً كما انه لا يوجد فيهم من بلغ مستوى اجتماعياً عالياً. وهكذا لم تؤثر عليهم ولم تصل اليهم بعد تيارات الحضارة الغربية ، بل ظلوا محافظين اتم المحافظة ، حريصين على التقاليد والعادات القديمة ، التي لم يَعُدْ لها وجود الا لديهم ، ومن اجل ذلك فهم في رأينا جديرون بدراسة عميقة ، فمثلاً هم ما يزالون يؤدون شعيرة « الغطاس اليومي » على النحو الذي كانت معروفة به لدى قدماء « الايسينيين Esséniens » وهي نوع من الاغتسال الكلي او الغطاس في نهر الفرات مرتين في اليوم للطهارة[1] .

ونحن نعلم ان في دمشق ، وهي مدينة قريبة نسبياً من العراق ، كانت ما تزال توجد في عام ١٨٣١ طائفة من القرائين لا تتجاوز في ذلك التاريخ بضع عشرات . وكان ابناؤها يشتغلون بالزركشة بالذهب على النسيج ويعيشون في فقر مدقع[2] . وفي السنة المذكورة حلّت الطائفة ورحل اعضاؤها الى اسطنبول أو القاهرة ، اما من بقي منهم فقد اندمج شيئاً فشيئاً في طائفة الروم الكاثوليك[3] . وانما ذكرنا ذلك ليتبين لنا ان بعد اندثار القرائين بدمشق تبدو دراسة الطائفة في « هيت » من الناحية الاجتماعية على اكبر جانب من الاهمية ، اذ انها لم تندمج في اي عنصر آخر بل ظلت حافظة لكيانها وتقاليدها القديمة .

---

١) ارجع الى مقالنا :
Une Visite au Caire : *Vetus Testamentum* ; Vol. IV, 1954, pp. 203-204.

٢) U. J. Seetzen, *Reisen durch Syrien, Palästina, Phönicien, die Transjordan-Länder, Arabie Petraea und Unter-Aegypten*, Vol. I, Berlin. 1854, p. 295 ;
H. Petermann, *Reisen im Orient*, Vol. I, Leipzig. 1860, p. 112.

٣) الزيات ؛ المكتبة الشرقية (*Bibliothèque Orientale*) المستخرج من مجلة المشرق ، ١٩٣٨ — ١٩٤٠ المجلد الثالث — بيروت ١٩٤٦ . وارجع ايضاً الى مقالنا :
Teka Bejruckа. : مكتبة البولونية في مجموعة *Les « Caraïtes » Syriens* (كراسات بيروت) Cahier A., Beyrouth. 1949, p. 181-183, un résumé en français, 197.

ومع ذلك فقد لعبت طائفة دمشق دوراً هاماً في قديم الزمان ، اذ من المرجح ان تكون قد تأثرت بتعاليم « طائفة العهد الجديد Nouvelle Alliance » التي استقرت ردحاً من الدهر على ساحل البحر الميت ، ثم لاذت بعد ذلك بالفرار متخذة من دمشق ملجأ لها مدة ما من الزمن. وعلى ذلك تكون طائفة القرائين في هذا البلد وريثة هذه الطائفة القديمة ، والقائمة على استمرارها فيما بعد . هذا على الأقل هو ما نميل الى افتراضه عند اختبار مخطوطات البحر الميت التي تم العثور عليها حديثاً[1] .

ولنذكر هنا ان طائفة القرائين في دمشق قد انجبت في عهود ازدهارها رجالاً ممتازين في الثقافة والمجتمع ، نذكر منهم « القزاز » الذي كان من بين حكام المدينة ، والذي نجد عنه عدداً من المعلومات في مخطوطات « مستودع القاهرة » .

وكما سبق ان ذكرنا ، نلاحظ ان القرائين في ايامنا الحاضرة ليسوا الا فضلات من مراكز قرائية كانت في قديم الزمان كثيرة العدد ، ذات طابع ممتاز ، تعيش في انحاء هذا العالم العربي . فمثلاً مركز من مراكز القرائين كان ما يزال موجوداً حتى مستهل القرن الثامن عشر ، وكان يتألف من قوم من سكان جبال الاطلس الافريقية يحترفون الحدادة او الجندية[2] .

هذه المعلومات القليلة تمكننا مع ذلك من تكوين فكرة عن تعدد اشكال الكيان الاجتماعي لدى القرائين التي استعرضنا بعضها الآن وذكرنا

---

١) ارجع الى محاضرتنا : *La Communauté de la Nouvelle Alliance et le Karaïsme* التي قدمت يوم ٢١ سبتمبر (ايلول) ١٩٥٦ امام المؤتمر السادس عشر لتعهد الدولي للعلم الاجتماع ، في مدينة بون Beaune بساحل الذهب (Côte d'Or (France (فرنسا) . وفي نفس المؤتمر قدمت الدراسة الحالية كذلك .

٢) Johannis Leonis Africani : *Africae Descriptio*, IX. lib. absoluta. Lugd. Batav. Apud Elzeviz, 1632, pp. 126-128 وقد نشر النص بالعربية في : *Recueil de Voyages...* تحت باشراف H. Cordier و Ch. Schefer المجلد ٩ – باريس ١٨٩٦ ص ١٦٣–١٦٤

J. Jovet, *L'Histoire des Religions*, t. IV, Paris, 1710, p. 36.

P. Davity, *Description Générale de l'Afrique*, Paris, 1660, pp. 105, 111

بعض وجوه الشبه بينها وبين ما اتصل بها من صور المجتمعات التي كانت او ما تزال على صلة بها . وهذا التعدد في البنية الاجتماعية ليس فيه ما يدهش اذا ما تنبهنا الى تعدد المجموعات البشرية والحضارات المختلفة التي عاشرها القرّاءون في قديم الزمان ، والى ان هؤلاء انفسهم كانوا ينتمون الى جميع الاوساط الاجتماعية من ادنى الطبقات الشعبية الى ارقى ارباب الثقافة والعلم . ونذكر مثلاً احد معتنقي هذا المذهب في القرن العاشر وهو الفيلسوف الكبير داود المقمص الذي وصل الى الرياسة العليا للطائفة بأجمعها[1] .

نلاحظ ايضاً ان المذهب القرّائي كان يحترم الخصائص البشرية والثقافية حيثما القت به المقادير ، ويبدو هذا الاحترام بنوع خاص في ترجمة الكتاب المقدس والصلوات المختلفة الى لغات الامم التي يعيش فيها معتنقوه . وهكذا نجد تراجم تركية وروسية وعربية . كما ان الترجمة من العربية كانت غزيرة جداً كما تشيد بذلك وثائق من هذه المكتوبات التي عثر عليها في الفسطاط ، ومؤلفات لعلماء من القرّائين الذين كانوا يعيشون في الشرق الادنى في هذه الازمان .

واخيراً فلعل هذه المجالة السريعة عن المذهب القرّائي في العالم العربي ، تدفعنا الى الشعور بضرورة دراسة كاملة ، على يد المختصين في شعب العلم والثقافة على اختلافها . وحسبنا نحن ان نكون قد لفتنا انظارهم الى موضوع هو في الحقيقة جزء متمم للدراسة الاجتماعية العامة للشرق الادنى .

ترجمة الدكتور حسن ظاظا
المدرس بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

---

١) كان داود المقمص من اتباع مذهب ارسطو في الفلسفة والمعتزلة في علم الكلام . وفي القرن التاسع عشر عثر على بقايا من مؤلفات عديدة له اتاحت للباحثين ان يتعرفوا على شخصية هذا المفكر التي كانت مبهمة غاية الابهام الى ذلك الحين .